﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ٥٥﴾ [التّوبة: 55]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الـرَّبـطُ بـينَ فـضـحِ صـفـاتِ المُـنـافـقـينَ، والتَّنبيه إلى أنَّ حالَهُم استدراجٌ لِلهلاكِ

هذه الآيةُ مُرتبِطةٌ تمامًا بالسِّياقِ السَّابقِ في الحديثِ عن المُنافقينَ وصفاتِهم وفضحِهم وكشفِ مَواقفِهم، وقد أمرَ اللّه نبيَّهُ ﷺ في الآياتِ السّابقةِ بأن يبلِّغَهُم بأنَّ إنفاقَهُمُ الطَّوعيَّ أو الإلزاميَّ لن يُقبلَ منهُم: ﴿قُلۡ أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ٥٣ وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ٥٤﴾ [التّوبة: 53 - 54]، فجاءَت هذه الآيةُ؛ لِتُحذِّرَ المؤمنينَ مِنَ الاغترارِ بوفرةِ أموالِ المُنافقينَ، وتَوفُّرِ أسبابِ الدُّنيا بينَ أيديهم، فما كانَ ذلكَ لهُم إلَّا تَعجيلًا في عذابِهِم وهلاكِهم.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُعۡجِبۡكَ﴾: مِن (عجب)، والتَّعجُّبُ حالةٌ تعرضُ للإنسانِ عندَ الجهلِ بسببِ الشَّيءِ، ولهذا قِيلَ: العَجبُ مَا لا يُعرَفُ سببُهُ، وقِيلَ: لا يَصحُّ على اللّهِ التَّعجُّبُ؛ إذ هو علَّامُ الغيوبِ، لا تخفى عنه خافيةٌ.. ويُقالُ: أعجبني كذا؛ أي: راقني[1]، وقالَ بعضُهُم: التَّعجُّبُ زيادةٌ في وصفِ الفاعلِ خَفيَ سببُها، وخَرجَ المُتعجَّبُ منهُ عن نظائرِه[2].

والعجيبُ: الأمرُ يُتَعَجَّبُ منهُ، وكذلك العُجابُ بالضَّمِّ، والعُجَّابُ بالتَّشديدِ أكثرُ منهُ، وكذلك الأعجوبةُ، وقولُهُم: (عَجَبٌ عاجِبٌ)، كقولِهِم: (ليلٌ لائلٌ) يُؤكَّدُ به، والتَّعاجيبُ: العجائبُ، لا واحدَ لها مِن

(1) سميح عاطف الزّين، تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (عجب).
(2) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (عجب).

لفظِها[1]، وزعمَ الخليلُ أنَّ بينَ العجيبِ والعُجابِ فَرقًا، فَأمَّا العَجِيبُ والعَجَبُ مِثْلُهُ فَالأمرُ يُتَعَجَّبُ مِنهُ، وأمَّا العُجَابُ فالَّذي يُجَاوِزُ حدَّ العَجِيبِ، قَالَ: وَذلكَ مِثلُ الطَّوِيلِ والطُّوَالِ[2]، وأعجبَني هذا الشَّيءُ، وقد أُعجبتُ بِهِ، وشَيءٌ مُعجِبٌ؛ إذا كانَ حَسَنًا جدًّا.

2) ﴿وَتَزْهَقَ﴾: زهقَتْ نفسُهُ زُهُوقًا: "خرجَت وهَلَكَت، وماتَت (كزَهِقَت، كسَمِعَ)، لغتان ذكرَهُما ابنُ القُوطِيَّةِ والهَرَويُّ، ورجَّحا الكسرَ، وأبو عبيدٍ رجَّحَ الفتحَ، وفي حديثِ الذَّبيحةِ: «وأقِرُّوا الأنفُسَ حَتَّى تَزْهَقَ»[3]؛ أي: حتَّى تَخرُجَ الرُّوحُ منها، ولا يَبقَى فيها حركةٌ، ثمَّ تُسلَخُ، وتُقطَعُ"[4]، وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ﴾ [التّوبة: 55]، يُقالُ: زَهَقَت نفسُهُ؛ أي: فاضَت أسفًا[5]، والمعنى هنا: أنَّ اللّهَ يقولُ لِنبيِّهِ: لا تُعجِبْكَ كثرةُ أموالِ هؤلاءِ المُنافقينَ، ولا كثرةُ أولادِهِم، فاللّهُ يريدُ أن يعذِّبَهم بها في الدُّنيا، فَتَجِدُهُم في تعبٍ وضنكٍ وإرهاقٍ، ويبتليهم خلالَها بالمَصائبِ الَّتي تُصَبُّ عليهم صبًّا، ثمَّ لا يلبثونَ إلَّا قليلًا، حتَّى يَموتوا على كفرِهِم، فينصرمَ وجودُهُم في هذه الحياةِ، وتُزهَقَ نفوسُهُم، وتخونَهُمُ الأيَّامُ، فلا يرون فيها سرورًا ولا حبورًا.

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

تذكير الرَّسولِ الأكرمِ ﷺ كي لا ينساقَ وراءَ الانبهارِ بما يحوزُ هؤلاءِ الكفرة مِن أموالٍ، وما عندَهُم مِن أولادٍ، ومَا يَرتعونَ فيهِ مِن نَعماءَ وخيراتٍ، فإنَّها ستكونُ عليهم حسراتٍ، لا يَنتفعونَ بها في دنياهُم، ولا في أُخراهُم، ثمَّ يميتُهُمُ اللّهُ على الكفرِ، فتُزهَقُ

التَّحذيرُ مِنَ الإعجابِ بِزخرفِ الأولادِ والأموالِ؛ لأنَّها استدراجٌ ووبالٌ

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (عجب).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عجب).
(3) من حديث عثمان بن عفّان ﷺ: أمر مُنادِيًا فَنادَى: «أَنَّ الذَّكاة في الحَلقِ واللَّبَّةِ لمن قدر، وأقرُّوا الأَنْفس حَتَّى تزهق». يُنظر: أبو بكر بن أبي شيبة، الكتاب المُصنّف في الأحاديث والآثار: رقم: (19832): 4/255، وابن قتيبة، غريب الحديث: 2/68.
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (زهق).
(5) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (زهق).

أرواحُهُم، وهُم في الغيِّ يَعمهونَ، وسوف يُفارقونَ الحياةَ، وهُم في الباطلِ يَرتعونَ، فيكونُ ذلك أشدَّ نكالًا في العاجلةِ، وأعمقَ إيلامًا في الآجلةِ؛ لأنَّ بهرجَ الأموالِ، وعزوةَ الأولادِ، إنَّما هي بلاءٌ شديدٌ، وامتحانٌ مَديدٌ، واستدراجٌ مُرْدٍ، ومَصيرٌ بائسٌ، لِمَن فارقَ الحياةَ على الكفرِ، ولم يرجعْ عن غيِّهِ وسفاهتِهِ وسُوءِ أعمالِهِ.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ (الفاءِ) وأثرُها في: ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ﴾:

قولُهُ: ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ﴾ تفريعٌ على مَذمَّةِ حالِهِم في أموالِهِم، وأنَّ وفرَةَ أموالِهِم لا تُوجِبُ لَهُم طُمَأنِينَةَ بَالٍ[1]، والفاءُ للإفصاح؛ لأنَّها تُفصِحُ عن شرطٍ مُقدَّرٍ، يَقتضيهِ سياقُ البيانِ؛ أي: "إن كانَت هذه الأموالُ لا يُنفقونَها في سبيلِ اللهِ - ذكرَهُما ابنُ القوطيَّةِ والهرويُّ - فلماذا يُعطونَها؟ فقالَ تعالى: ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ﴾ الآية؛ أي: لا يُثِرْ عجبَكَ كثرَةُ أموالِهِم وأولادِهِم وأنصارِهِم، ممَّا أُعطوا مع كفرِهِم ونفاقِهِم واستهانتِهِم بالحقِّ والتَّنفيرِ منهُ، وتأليبِ المُبطلينَ، لا يُغرنَّكَ هذا.. إنَّما هي فِتنةٌ لَهُم واستدراجٌ[2]، وعليه فالفاءُ إمَّا استئنافيَّةٌ، وإمّا رابطةٌ لجوابِ شرطٍ مُقدَّرٍ: (إنْ نظرتَ إليهم؛ فلا تعجبْكَ أموالُهُم)[3]، ولا شكَّ أنَّ هذا الرَّأيَ وَجيهٌ، ويتلاءَمُ مع السِّياقِ؛ فقد قالَ بعدَها: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾، فكأنَّها جاءَت تَعليلًا لِلأمرِ بتركِ النَّظرِ إلى ظاهرِ أحوالِهِم.

النَّهيُ عنِ الاغترارِ بظاهرِ الأحوالِ، إذا لم تُقبَلْ حَصائِلُ الأعمالِ

بلاغةُ التَّلميحِ والتَّعريضِ: ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ﴾:

ظاهرُ النَّهي في الآيةِ الكريمةِ مُوجَّهٌ لِلنَّبيِّ ﷺ، ولكنَّ القرائنَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/227.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3335.
(3) صافي، الجدول: 10/363.

المعنويَّةَ المتعلِّقةَ بمَقامِ النُّبوَّةِ عندَ اللهِ تعالى، تَستوجِبُ حملَ الخطابِ إلى أمَّتِه، وهو بابٌ مِن أبوابِ التَّعريضِ أو التَّلميحِ، ينطبقُ عليهِ قولُهم: (إيَّاك أعني، واسمعي ياجارة)[1]، وعليه "فالخطابُ للرَّسول ﷺ، أو لكلِّ مَن سمعَ القولَ أو بلَغَهُ، والكلامُ مُرتَّبٌ على ما قبلَهُ، كأنَّهُ يقولُ: إذا كانَ هذا شأنُهم في مظنَّةِ ما يَنتفعونَ بهِ مِن أموالِهم، لا يقبلُ اللهُ منهُ صَرفًا ولاعَدلًا، فلا تُعجبْكَ أيُّها الرَّسولُ، أو أيُّها السَّامعُ، أموالُهُم ولا أولادُهُم الَّتي هي في نفسِها مِن أكبرِ النِّعَم وأجلِّها، ولا تَظُنَّ أنَّهُم - وقد حُرِموا مِن ثوابِها في الآخرةِ - قد صَفَا لَهُم نعيمُها في الدُّنيا"[2].

النَّهيُ مُوجَّهٌ لإرشادِ المؤمنينَ؛ لِتَصحيحِ الفهمِ، وحُسنِ العَملِ

دلالةُ النَّهي في: ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ﴾:

الأصلُ حمْلُ النَّهي على وجوبِ التَّركِ على جهةِ الاستعلاءِ، ولكن لكونِ الإعجابِ أمرًا قلبيًّا، ولكون ظاهرِ الخطابِ في الآيةِ الكريمةِ موجَّهًا للنَّبيِّ ﷺ، وللفئةِ المُؤمنةِ معه، فلا مانعَ مِن حمْلِ النَّهي حينَئذٍ على معنى الإرشادِ والتَّوجيهِ، أو الاستدامةِ على امتثالِهم لمضمونِ هذا النَّهي، وهذا المَلمَحُ في النَّهي شبيهٌ بقولِه تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ ١٣١﴾ [طه: 131]، أو قولِه: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١٩٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٩٧﴾ [آل عمران: 197].

النَّهيُ بغرضِ الإرشادِ والتَّوجيهِ إلى دوامِ التَّركِ لِلمَنهيِّ عنهُ

نكتةُ تقديمِ الأموالِ على الأولادِ:

وذلك في قوله: ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ﴾ ولكن مِن عادةِ القرآنِ الكريمِ أنَّهُ يُقدِّمُ فتنةَ المالِ على فتنةِ الأولادِ في كُلِّ

اشتغالُ النَّاسِ بأموالِهم أكبرُ، وفتنةُ الأولادِ في الحياةِ أخطرُ

(1) وهو شطرٌ مِن بيتِ شعرٍ يُنسَبُ لسهلِ بنِ مالكٍ الفزاريِّ:
يا أختَ خَيرِ البَدوِ والحَضارَهْ *** كَيفَ تَرَينَ في فَتًى فَزارَهْ
أصبَحَ يَهوَى حُرَّةً مِعطارَهْ *** إيّاكِ أعني واسمَعِي يا جارَهْ
يُنظر: النّيسابوريّ، مَجمَع الأمثال: 1/49.

(2) محمد رضا، تفسير المنار: 10/418.

المَواضِعِ الَّتي يجتمعان فيها، نحو قولِهِ: ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ﴾ [سبأ: 37]، وقولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [المنافقون: 9]، وقولِهِ: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ١٥﴾ [التغابن: 15]، وقولِهِ: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ٤٦﴾ [الكهف: 46]؛ وذلك لأنَّ فتنةَ المالِ أعمُّ مِن فتنةِ الأولادِ، وأثرها يعمُّ الأولادَ وغيرَهُم، بل هي السَّببُ في الرَّغبةِ في الحصولِ على الأولادِ، ولم يتقدَّمْ ذكرُ الأولادِ على المالِ إلَّا في قولِهِ: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ١٤﴾ [آل عمران: 14]؛ لأنَّها جاءَت في وصفِ أصولِ الزِّينةِ الَّتي جَبَلَ اللهُ النَّاسَ عليها؛ لذلك بُنِيَ فعلُ الزِّينةِ فيها لِمَا لَم يُسمَّ فاعلُهُ؛ لأنَّ أصلَ تزيينِها في النُّفوسِ مِنَ اللهِ، ثمَّ يأتي دورُ الشَّيطانِ بعدَ ذلكَ في جعلِها سببًا في الفتنةِ والإغواءِ، فبناءُ الفعلِ لِمَا لم يُسمَّ فاعلُهُ بلاغةٌ في تركِها بحسبِ المُزيَّن، وقد جاءَ فيها تقدُّمُ ذكرِ زينةِ البنين على المالِ؛ لأنَّ الإنسانَ بطبعِهِ لا يُقدِّمُ المالَ على بنيهِ، بل يَحرِصُ على جمعِهِ لأجلِ إسعادِهِم، وهُوَ على استعدادٍ لأنْ يَفتديَهُم بِهِ، فجاءَ التَّرتيبُ بحسبِ الأصلِ، وما يتَّفِقُ معَ الفطرةِ.

نكتةُ إعادةِ ذكرِ حرفِ النَّفي ﴿وَلَآ﴾:

التَّكرارُ في القرآنِ يُنشِئُ معنًى جديدًا؛ إذْ هو ليسَ تَرديدًا

أعادَ القرآنُ ذِكْرَ ﴿وَلَآ﴾ النَّافية بعدَ حرفِ العطفِ مع الأولادِ في قوله: ﴿وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ﴾؛ للإشارةِ إلى استقلالِ كُلِّ فتنةٍ عنِ الأخرى، وبأنَّها لا تَقلُّ خطرًا عنها، وقيلَ: إنَّ تكرارَها كانَ للإيماءِ بأنَّ ذِكْرَ الأولادِ كانَ كالتَّكملةِ والاستطرادِ[1]، ثمَّ إنَّ كليهما نعمةٌ وفتنةٌ، والنَّاسُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/228.

مُتفاوتونَ فيهما، فهُناكَ مَن ابتُلِيَ بفتنةِ المالِ، فعصى به الخالقَ، وطغى بهِ على الخلائقِ، وهناك مَن ابتُلِيَ بفتنةِ الأولادِ، فهامَ بحبِّهِم في كُلِّ وادٍ، ونسيَ مِن أجلِهِم ربَّ العبادِ، واجتلبَ لَهُمُ العيشَ الكريمَ مِن حلِّ الرِّزقِ وحرامِهِ إرضاءً لَهُم، وتلبيةً لِمَرغوباتِهِم، فَهَلَكَ بذلكَ، وهناك مَنِ ابتُلِيَ بفتنةِ المالِ والأولادِ معًا، فكانَت نعمتُهُ أكثرَ، وفتنتُهُ أكبرَ، ونموذجُ ذلك واضحٌ في الوليدِ بنِ المُغيرةِ الَّذي قرَّعَهُ السِّياقُ القرآنيُّ؛ لأنَّهُ كَفَرَ مَعَ اكتمالِ النِّعمةِ بوجودِ المالِ والولدِ عندَهُ، قالَ تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَـٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾﴾ [المدّثّر: 11 - 16].

بلاغةُ الحذفِ في ذكرِ الأموالِ والأولادِ:

فتنةُ الأموالِ والأولادِ شديدةٌ ومُتشعِّبةٌ

قولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ﴾، دلَّ ذِكرُ الأموالِ والأولادِ على مَحذوفاتٍ؛ تقديرُها: فَلا تُعْجِبْكَ كثرةُ أموالِهِم، ووفرَتُها بينَ أيديهِم، وسهولةُ تحصيلِها، وتنوُّعُ أصولِها وفصولِها، ولا كثرةُ أولادِهِم وقُوَّتُهُم ومُناصرتُهم لهم، وهكذا تذهبُ النُّفوسُ في تقديرِ هذه المحذوفاتِ كُلَّ مَذهَبٍ.

نكتةُ الفصلِ في الآيةِ:

الجملةُ التَّعليليَّةُ تُبيِّنُ المعنى المتضمّنَ في سياقِها

قولُهُ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، فُصِلَت هذه الجملةُ عن سابقتِها؛ لأنَّها جاءَت استئنافًا بيانيًّا، جوابًا عن سُؤالٍ مُقدَّرٍ: (لماذا كانَ النَّهيُ عنِ الإعجابِ بها؟)، فهي جملةٌ تعليليَّةٌ لهذا النَّهي، ويُضافُ إلى ذلك أنَّها جملةٌ خبريَّةٌ، وما سبقَها جملةٌ إنشائيَّةٌ؛ فالفصلُ مُتحقِّقٌ لكمالِ انقطاعِها عنها.

بلاغةُ أسلوبِ القصرِ:

تضمَّن قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا﴾ قصرًا بـ(إنَّما) الَّذي يُؤتَى بهِ لغيرِ المُنكِرِ، أو لِمَن يُنزَّلُ هذه المنزلةَ، والخطابُ هنا لِلنَّبيِّ

ﷺ، وللفئةِ المؤمنةِ معهُ، وهُم يَعرفونَ هذا، ولا يُنكِرونَهُ، وهو قصرٌ موصوفٌ على صفةٍ، وهو قصرٌ إضافيٌّ؛ لأنَّ وفرَةَ هذه الأموالِ والأولادِ بينَ أيديهم له حِكَمٌ أخرى، غيرُ ما ذُكِرَ، ويمكنُ حملُهُ على قصرِ القلبِ؛ لأنَّ وفرةَ هذه الأموالِ والأولادِ بينَ أيدي المنافقينَ، لم تكنْ إلَّا وَبالًا عليهم، وليسَ كما هو ظاهرٌ لَهُم.

الإشـــارةُ إلى طمأنةِ المؤمنينَ، وتثبيت قلوبِهِم بهلاكِ أعدائِهِم

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعيَّةِ في ﴿يُرِيدُ﴾ و﴿لِيُعَذِّبَهُم﴾:

دلَّ التَّعبيرُ بالفعلَين المُضارعَين على استحضارِ صورتِهِم، وهُم يظنُّونَ أنَّ أموالَهُم وأولادَهُم ستكونُ سببًا في عزَّتِهِم، وعلوِّ شأنِهِم، فإذا بها تكونُ سَببًا في شقائِهِم، فضلًا عن دلالةِ المضارعِ على التَّجدُّدِ الاستمراريِّ، لهذه السُّنَّةِ الإلهيَّةِ في كلِّ حينٍ حتَّى قيامِ السَّاعةِ، ومِن شأنِ هذه الجملةِ الخبريَّةِ حينَئذٍ أن تثبِّتَ قلوبَ المؤمنينَ.

سـنَّـةُ الـلـه في تعذيبِ المنافقينَ ماضيةٌ إلى يومِ القيامةِ

نكتةُ حذفِ مفعولِ الإرادةِ:

قولُهُ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا﴾ تقديرُ الكلامِ: إنَّما يريدُ اللهُ إعطاءَهُم الأموالَ والأولادَ لِيعذِّبَهُم بها، فالحذفُ لِلإيجازِ لِوجودِ مَا يدُلُّ عليه، واللَّامُ هنا للتَّعليلِ[1]؛ أي: لأجلِ أن يعذِّبَهُم بها، واللَّامُ تغني هنا عن مَفعولِ الإرادةِ، ويكثرُ وقوعُها بعدَ فعلِ الإرادةِ[2]، كقولِهِ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّـهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [النِّساء: 26].

فـعـلُ الإرادةِ هنا تعبيرٌ عن يقينِ وقوعِ مُرادِ المريدِ، فيما يُريدُ

معنى (الباء) في: ﴿بِهَا﴾:

الباءُ هنا سببيَّةٌ؛ أي: بسببِ كثرةِ الأموالِ والأولادِ، والمُرادُ بالعذابِ المُلمَحِ إليه بقولِهِ: ﴿بِهَا﴾: ما ينالُهُم مِنَ المَشقَّةِ في تحصيلِها، والسَّعي الشَّديدِ في ذلك.. فالأموالُ والأولادُ قد صارَت وَبالًا عليهم، ومِن وبالِها تعلُّقُ قلوبِهم بها، وارتباطُ إرادتِهم بها،

أبلغُ العذابِ أن تصبحَ المنحةُ محنةً، وأن تصيرَ النِّعمةُ عذابًا

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/171.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/229.

فتكونُ مُنتهى المطلوبِ، وغايةَ المرغوبِ، بحيث لا يبقى في قلوبِهم لِلآخرةِ نَصيبٌ، فيكونُ زُهْقُ أنفسِهم بانتقالِها إلى الآخرةِ، وهُمْ على الكُفرِ[1].

نكتةُ التَّقديمِ والتَّأخيرِ في: ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾:

يحتملُ أن يكونَ نظمُ الآيةِ في أصلِ التَّرتيبِ: فلا تعجبْكَ أموالُهُم ولا أولادُهُم في الحياةِ الدُّنيا، فيتعلَّقُ قولُهُ: ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بقولِهِ: ﴿تُعْجِبْكَ﴾، فيكون تقديمُ قولِهِ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا﴾ من بابِ تعجيلِ المَسرَّةِ لِلمُؤمنينَ، ويحتملُ أن تكونَ الآيةُ على نظْمِها الَّذي جاءَت عليهِ، ويكونَ عذابُهُم حينَئذٍ في الدُّنيا قبلَ الآخرةِ، ويكونَ تعلُّقُ شبهِ الجملةِ بقولِهِ: ﴿لِيُعَذِّبَهُم﴾ لِما أنَّهم يُكابِدونَ المَتاعبَ بجَمعِها وحِفظِها، ويُقاسُونَ فيها الشَّدائدَ والمَصائبَ، وليسَ عندَهُم مِنَ الاعتقادِ بثوابِ اللهِ تعالى ما يُهَوِّنُ عَليهِم مَا يَجِدُونَهُ، أو يُعذِّبهم بها في الدُّنيا، بأخذِ الزَّكاةِ مِنهُم والنَّفقةِ في سبيلِ اللهِ، مع عدمِ اعتقادِهِمُ الثَّوابَ على ذلك، أو تَعذيبُهُم بأن تكونَ أموالُهُم غنيمةً لِلمُسلمينَ، وتعذيبُهُم بأولادِهِم بأنَّهم قد يُقتَلونَ في الحربِ، فَيَجزَعونَ لِذلِكَ أشدَّ الجَزعِ، حيثُ لا يَعتَقِدونَ شَهادَتَهم، أو تعذيبَهُم بهم، بأن يكونَ أولادُهُم سببًا في قتلِهِم إنْ أظهَرُوا الكفرَ[2]، وفي هذا أيضًا تسريةٌ عَنِ المؤمنينَ ووَعيدٌ لِلمُنافقينَ.

تثبيتُ أفئدةِ المؤمنينَ مَقصدٌ مُهمٌّ في السِّياقِ المُبينِ

معنى(أل) في لفظِ ﴿ٱلْحَيَوٰةِ﴾:

عهديَّةٌ يُرادُ بها الحياةُ الأولى الَّتي يعيشونَها على الأرضِ، والَّتي أبرزَها السِّياقُ بالتَّعريفِ والوصفِ، والحياةُ الدُّنيا نعمةٌ، والمالُ والبنونَ نعمةٌ أيضًا، ولكنَّها قد تَطغى على الشُّعورِ الإنسانيِّ عندَ المُؤمِنِ، فينشغلُ بالنِّعمةِ، وينسى المُنعِمَ، وقد يؤولُ ذلك إلى الكفرانِ

الحياةُ الدُّنيا برقٌ خلَّبٌ، والعذابُ فيها شقاءٌ وبلاءٌ وضيقٌ

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 340 (بتصرّف).
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/171.

وترك الشُّكران، والمالُ والولدُ في الحياةِ الدُّنيا قد يكونان سببين في أن يخافَ الإنسانُ ترْكَ الدُّنيا. ... والَّذي لا يُؤمنُ باليومِ الآخرِ؛ فالدُّنيا هي كلُّ زمنِه؛ وإنْ فاتَها كانَ ذلك مصيبةً له، وإنْ فاتَتْهُ كانَ ذلك مُصيبةً عليه[1]، فأمرُهُ كلُّهُ مُتعلِّقٌ بهذهِ الحياةِ الفانيةِ الَّتي طالما سرَّت وغرَّت، ثمَّ انقلبَت على صاحبِها، فضرَّت.

فائدةُ العطفِ ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ﴾:

الواو عاطفةٌ، والجملةُ مَعطوفةٌ على قولِه: ﴿لِيُعَذِّبَهُم﴾، وهي داخلةٌ معَها في حيِّزِ الإرادةِ والتَّعليلِ؛ فاقتضَت إرادتُهُ أن يُعذِّبَهم بأموالِهم وأولادِهم، وأن يموتوا على الكُفرِ، فكلُّ أفعالِ العبادِ خيرِها وشرِّها، إنَّما تقعُ بمشيئةِ اللهِ وإرادتِه، لكنَّ الأفعالَ القبيحةَ منها تقعُ بإرادتِه سبحانَهُ دونَ مَحبَّتِه ورضاه؛ فالأفعالُ مِنَ اللهِ خَلْقًا ومِنَ العبادِ اكتِسابًا، كما هو مُقرَّرٌ في عقائدِ أهلِ السُّنَّةِ[2].

وبالُ فتنةِ المالِ والأولادِ راجعٌ بالمساءةِ في الدُّنيا وعندَ المَعادِ

بلاغةُ الكنايةِ في: ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ﴾:

مادَّةُ (زهق) تقومُ على المضيِّ والذَّهابِ بمَشقَّةٍ، ولم تَردْ في القرآنِ الكريمِ إلَّا في ثلاثةِ مَواضِعَ: مَوضِعان منهما تقدَّمَ الحديثُ عنهما في هذه السُّورةِ، والمَوضِعُ الثَّالثُ في سورةِ الإسراء في قولِه: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء: 81]؛ أي: مُضمحِلًّا لا ثباتَ لهُ في كلِّ آنٍ[3]، فقولُهُ في آيتَي سورةِ التَّوبةِ ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ﴾، هو كنايةٌ عن موتِهم بسببِ مُضيِّ أرواحِهم ونفوسِهم بمَشقَّةٍ.

زُهوقُ الأنفسِ مُفارقةُ أرواحِهم أجسادَهم بمشقَّةٍ وعسرٍ

غرضُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ في: ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ﴾:

دلَّ الفعلُ المضارعُ هنا على استحضارِ صورتِهم لحظةَ النَّزعِ مِن ناحية؛ لِمَا تدُلُّ عليه لفظةُ ﴿وَتَزْهَقَ﴾ مِن معاني خروجِ الرُّوحِ بشدَّةٍ

السِّياقُ الفعليُّ يُعينُ على تجليَةِ المعنى، وإبرازِ بيانِهِ

(1) الشَّعراويُّ، تفسير الشّعراويّ: 9/5191.

(2) الأشعري، الإبانة، ص: 187، وابن تيمية، درء تعارض العقل والنقل: 1/68.

(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 16/205.

وضيقٍ مِنَ الجسدِ، وتدُلُّ كذلكَ على تجدُّدِ الموتِ فيهم، واستمراريَّتِهِ على حالِهِم هذهِ.

نكتةُ المجازِ العقليِّ في إسنادِ الزَّهقِ إلى الأنفسِ:

في إسنادِ الفعلِ ﴿وَتَزۡهَقَ﴾ إلى الأنفسِ مَجازٌ عقليٌّ أو حكميٌّ، فإزهاقُ هذه الأنفسِ مِن فعلِ اللهِ، وليسَ مِن فعلِها، وإنَّما أسندَهُ إليها؛ لأنَّها مَحلُّ وقوعِ إرادةِ اللهِ فيها.

اللهُ يَتوفَّى الأنفسَ، وإليه الرُّجعى والمصير

معنى الواوِ في قولِهِ: ﴿وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾:

قولُهُ تعالى: ﴿وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ الواو حاليَّةٌ؛ والمعنى: تَزهَقُ أنفسُهم، وحالُهُم أنَّهُم على الكُفرِ، والجملةُ الاسميَّةُ بعدَ الواوِ في محلِّ نصبٍ؛ حال من ضميرِهِم المضافِ إليهِ في قولِهِ: ﴿أَنفُسُهُمۡ﴾.

الجملةُ مُنبئةٌ عن حالِ مُعتقدِهِم حينَ زهْقِ أنفسِهِم

دلالةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ ﴿وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾:

دلَّتِ الجملةُ الاسميَّةُ على ثباتِهِم على الكُفرِ، وإصرارِهِم على النِّفاقِ، حيثُ تَزْهَقُ أنفسُهُم، فيأتي عليهم الموتُ وهُم كافرونَ، فيكونون مُنشغلِينَ بالتَّمتُّعِ عنِ النَّظرِ في العاقبةِ، فيكونُ ذلك لهم نقمةً لا نعمةً.

الثَّباتُ على الكفرِ قلَّةٌ في العقلِ، وجهلٌ بالعواقبِ

بلاغةُ المتشابِهِ اللَّفظيِّ بين آيتي التَّوبة:

يَتشابهُ نظمُ هذه الآيةِ، وهي قولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾، مع قولِهِ تعالى في السُّورةِ نفسها: ﴿وَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَأَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ٨٥﴾ [التوبة: 85]، خلا أنَّ الآيةَ الثَّانيةَ كانَ العطفُ فيها بالواوِ دونَ الفاءِ الَّتي جاءَت هنا مُتناسِبةً مع الآيتَينِ السَّابقتَين اللَّتين تحدَّثتا عن نفقاتِهِم وعدمِ قبولِها منهُم بسببِ كفرِهِم باللهِ ورسولِهِ، وفعلِهُمُ الطَّاعاتِ وسائرَ النَّفقاتِ، وهُم كارهون، فجاءَت هذه الآيةُ مُتفرِّعةً عمَّا تقدَّمَها، أو جاءَت رابطةً لجوابِ شرطٍ مُقدَّرٍ،

ورودُ كُلِّ آيةٍ منهما مُتناسِبةٌ في نظْمِها، معَ السِّياقِ الَّذي وردَت فيهِ

كما تقدَّمَ، بخلافِ المَوضعِ الثَّاني، حيثُ جاءَت مُجرَّدَ عاطفةٍ بينَ صفاتِهم ومَواقفِهم المُختلفةِ، لذا لم تحظَ الآيةُ الثَّانيةُ بمزيدٍ مِنَ التَّوكيدِ بإعادةِ حرفِ النَّفي بعدَ العطفِ، كما في الأولى، وبلامِ التَّعليلِ، وبذكرِ الموصوفِ، وهو ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ﴾؛ لِتقدُّمِ ذكرِهِ في الأولى، ولأنَّه سَبَقَها قولُهُ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ إِنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمۡ فَٰسِقُونَ ٨٤﴾ [التّوبة: 84]، فقد أشارَت إلى حالِهِم في الحياةِ، فلم يكُنْ هناك داعٍ لإعادتِها في الآيةِ الَّتي تلَتها.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الموتُ والوفاةُ والقتلُ والهلاكُ والإزهاقُ:

تشترك ألفاظُ الموتِ في ذهابِ القوَّةِ مِنَ الجسدِ، وتختصُّ كلُّ لفظةٍ بما يوافقُ سياقَها

الموتُ: ذهابُ القوَّةِ مِنَ الشَّيءِ[1]، وقد سمَّاهما اللَّهُ تعالى مَماتًا، واشتقَّ منها، كما في قولِهِ تعالى: ﴿إِذٗا لَّأَذَقۡنَٰكَ ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ﴾ [الإسراء: 75]. فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ﴾ [الأنعام: 60]، وعلى هذا فالموتُ يأتي على معنى فقدانِ الحياةِ مِنَ الحيِّ، ويأتي على معانٍ مَجازيّةٍ أخرى[2]، وأمَّا الوفاةُ فتدلُّ على الإتمامِ والكمالِ، ومنه: الوفاةُ تكونُ لاستيفاءِ المدَّةِ الَّتي قدَّرَها اللَّه[3]، وأمَّا القتلُ فأصلُ القَتْلِ عندَ الرَّاغب: إزالةُ الرُّوحِ عنِ الجسدِ كالمَوتِ، لكنْ إذا اعتُبِرَ بفعلِ المُتَوَلِّي لذلكَ؛ يُقالُ: قَتَلَ، وإذا اعتُبِرَ بفَوتِ الحياةِ يُقالُ: مَوتٌ[4]، وقد جمعَ اللَّه بينَ لفظتَيِ القتلِ والمَوتِ في أكثرِ مِن مَوضعٍ في سورةِ آل عمران: ﴿وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوۡ مُتُّمۡ لَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحۡمَةٌ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ١٥٧﴾ [آل عمران: 157]، وقوله: ﴿وَلَئِن مُّتُّمۡ أَوۡ قُتِلۡتُمۡ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحۡشَرُونَ ١٥٨﴾ [آل عمران: 158]. والهلاكُ: يَدُلُّ عَلَى كَسْرٍ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (موت).
(2) الرّاغب، المفردات: (موت).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وفى).
(4) الرّاغب، المفردات: (قتل).

وسُقوطٍ[1]، والهلاكُ: الموتُ، كقولِهِ: ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌاْ هَلَكَ﴾ [النّساء: 176][2]، ويأتي الهلاكُ في القرآنِ الكريمِ وَصفًا لِمَن مَاتَ، وليسَ له وَارثٌ مِن صُلبِهِ، أو مَن ماتَ ولم يترك وراءَهُ مَن يُكمِلُ مَسيرَتَهُ، فقد قالَ عنِ الكلالةِ: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِۚ إِنِ ٱمْرُؤٌاْ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌۚ﴾ [النّساء: 176]، وقوله على لسانِ مُؤمِنِ آلِ فِرعونَ: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًاۚ﴾ [غافر: 34]، فظاهرٌ مِن كلامِهِ انقطاعُ دعوةِ يُوسفَ ﷺ وزوالُ أثرِها، وبهذا يتَّضحُ أنَّ لفظةَ ﴿وَتَزْهَقَ﴾ قد جاءَت هنا لِتُعبِّرَ عَنِ الموتِ أو الهلاكِ الَّذي أصابَهُم مِن خلالِ مُفارقةِ نفوسِهِم لِأجسادِهِم مَع ضيقٍ وأسفٍ؛ لأنَّهم لم يُحقِّقُوا مَا طمحُوا إليه بكثرةِ أموالِهِم وأولادِهِم، فجاءَ هذا اللَّفظُ دونَ غيرِهِ كنايةً عنِ الموتِ؛ لأنَّه الأليقُ بالسِّياقِ ومعنى الآياتِ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هلك).
(2) الرّاغب، المفردات: (هلك).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 17 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-14-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 17 : المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-14-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4716310 بتاريخ 2024/01/24م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»